

رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوج البندقية حول الموريسكيين

د. عبد الجليل القيسي

لا شك أن قضية الموريسكيين التي استقطبت اهتمام المؤرخين منذ العصور الحديثة ، ما زالت تشد العديد منهم اليوم إلى دراسة جوانب كثيرة لهذا الشكل المعقد . وعلى الرغم من تنوع وثراء عدد من الدراسات التاريخية المنهجية التي ظهرت مؤخرا ، إلا أننا ما نزال نشعر حيال هذا الموضوع بالحاجة إلى تعميقه بالعمل على استقراء المخطوطات والوثائق العربية والعثمانية منها على الخصوص ، هذا فضلا عن دور الوثائق الإسبانية التي ما زالت تزخر بمختلف المعلومات عن هذا الموضوع .

ننشر اليوم نص رسالة كان وجهها السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوج البندقية بتاريخ جوان 1614 حول الموريسكيين (1) ، لتعكس إحدى مواقف الدولة العثمانية منهم ، خصوصا بعد عملية الطرد النهائي من أندلس ، ذلك أن موقف الدولة العثمانية الذي شوه ما زال يحتاج إلى دراسة منهجية تستند إلى الوثائق الجديدة ، لا إلى الفرضيات والاحكام

اقتبس المقال من العدد 7 - 8 يناير 1977 من المجلة التاريخية المغربية
عثر صديقي الاستاذ خليل الساحل على هذه الوثيقة بآرشيف البندقية وقد تفضل مشكورا
بالسماع لنا بدراستها ونشرها في هذا العدد - كما نشكره على مساعدتنا على حل
معضلاتها .

الاعتباطية (2) ، ومحاولتنا هاته تهدف ، انطلاقا من هذه الرسالة الجديدة ، الى تتبع موقف الدولة العثمانية من عملية طرد الموريسكيين النهائي من الاندلس .

ان عمق مأساة الطرد النهائي التي عاشها الموريسكيون لا تقل فظاعة وهولا عن مأساة مصيرهم منذ سقوط غرناطة ، بل ان الملابس الرهيبة التي حفت بتنفيذ الطرد ، قد تتجاوز حدود الادراك المنطقي للاحداث لتصبح شيئا خياليا غير ممكن التصور ، ومع هذا فان ما حدث للموريسكيين يستحيل على المؤرخين ان يترجموا عنه بدقة ويتعرفوا على كل تفاصيله ، وعلى هذا الاساس يبقى البحث التاريخي ، ازاء مثل هذه القضايا ، نسبي النتيجة .

ماذا كان موقف الدولة العثمانية وهي تشهد عملية الاختناق الموريسكي والطرده الجماعي في اوائل العشرينيات من القرن السابع عشر ؟

ان الوضع السياسى للامبراطورية العثمانية اثناء حكم السلطان أحمد الاول (1603 - 1617) كان وضعاً دقيقاً وصعباً ، حيث عرفت الدولة العثمانية عدداً من المشاكل الداخلية والهزائم البحرية مع النمسا وفارس ، وتجلى هذا الضعف فى صلح زيتفاترك الجائز (Sztivatorok) الذى عقده العثمانيون مع النمسا عام 1606 والصلح الذى عقده مع شاه فارس عباس الكبير ، ثم الثورات التى اندلعت فى عدد من الولايات العثمانية الاوروبية والعربية (3) . ولم تعد البحرية العثمانية مرهوبة الجانب فى عرض البحر

(2) ان دراسة موقف الدولة العثمانية من المشكل الموريسكى عموماً ما زال ينتظر مؤرخاً منصفاً ، خاصة واننا ملنا الاحكام الاعتباطية العاطفية والتي تعودنا سماعها من طرف عدد من المؤرخين الذين لم يكلّفوا أنفسهم عناء البحث فى الوثائق العثمانية حتى يكونوا امناء على اقرار الحقائق . ويذهب المؤرخ محمد عبد الله عنان حتى الى اقرار اتهام موقف الدولة العثمانية من انه : «لم يكن متسماً باية بادرة مشكورة او موقف مشرف ، يستحق تسجيل التاريخ وتقديره» من قضية الموريسكيين . وان العثمانيين «شغلوا بفتوحاتهم العقيمة (كذا) فى أوروبا ، فى بودوليا واليوكرين ، وفى المجر ونميسرها . وهى الفتوح التى اثارت أوروبا النصرانية كلها على الاسلام ودفعتها الى التكتل لناوالة وكفاحه فى حملات صليبية جديدة» راجع هذه الدراسة : «موقف القسطنطينية وباقي العالم الاسلامى من سقوط الاندلس وآخر مسلميها وامام الغزو الاوروبى للعالم الاسلامى عموماً» بمجلة الاصاله ، عدد 27 ، سبتمبر - اكتوبر ، الجزائر 1975 ، ص 101-115 . (3) كراموز «الأتراك» بـ دائرة المعارف الاسلامية باللغة العربية ، ج 2 ص 188 ، القاهرة ، 1969 . راجع أيضاً :

Cavid Baysun, «Ahmed I», in Islam Ansiklopedisi, t. I, pp. 161-164, Istanbul, 1940.

انظر أيضاً :

Robert Mantran, «Ahmed I» in Encyclopédie de l'Islam, 2e édition pp. 275-276.

الابيض المتوسط ، على الرغم من الحركة النشيطة التي أبدتها الاميرال العثماني خليل باشا ، كما أن اسبانيا أصبحت هي الاخرى دولة ذات أثر محدود جدا على ميزان القوى على البحر نفسه ، وظهر على الساحة السياسية فرنسا وانجلترا والبندقية التي اخذت تلعب دورا تزداد اهميته يوما بعد يوم . وكان على الباب العالي ان يأخذ بالاعتبار كل ذلك .

وقد عقد الباب العالي مع فرنسا معاهدة صداقة وأصدر السلطان خطا شريفيا بهذا الخصوص في 3 فيفري 1605 (4) بل أن المعاهدات التجارية التي تربط الباب العالي بفرنسا وبريطانيا والبندقية قد تجددت أثناء حكم السلطان احمد الاول (5) . الا ان علاقة الباب العالي مع البندقية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر اتسمت بالعمل على عرقلة أى تحالف أوروبى مع البندقية واطهار مزيد من التعاون التجارى معها (6) ، خاصة اذا أدركنا أن هم جمهورية البندقية هو حرصها الشديد على المحافظة على حيويتها الاقتصادية العالمية . وبذلك كانت الدولة العثمانية تتمتع بعلاقة طيبة مع هاته الدول الثلاث التي كانت تشكل أهم القوى الغربية آنذاك ، ما عدا اسبانيا ، عدوتها التقليدية خلال القرن السادس عشر حيث كان موضوع الموريسكيين من القضايا التي عمقت الخلاف بين المولتين .

وكان يسيطر على الحكومة الاسبانية فى أوائل القرن السابع عشر شغل بالها مشكل تصفية الموريسكيين (7) حيث انتهجت سياسة قمعية نجحهم بالعمل على اجتثاثهم نهائيا من أراضيها ، وقد تعددت القوانين لاوامر الصادرة من دواوين التحقيق بهذا الخصوص ، ومددت فترات صلاحية الطرد فى محاولة منهم المرات العديدة فى خنق المسلمين والقضاء بهم تماما .

ودون أن نستعرض تفاصيل الطرد المروعة والتتبعات التي اشرف عليها دوك دولرم (Duc de Lerme) (8) والكونت دو سالازار (Comte de Salazar)

(4) Le Baron I de Testa, Recueil des traités de la Porte Ottomane, premier, p. 175, Paris, 1864.

(5) Mantran, op. cit.

(6) Michel Lesure «Notes et Documents sur les relations Vénéto-Ottomanes 1570-1573 (II)», in Turcica, tome VIII-1, p. 118, Paris - Strasbourg, 1976.

(7) Henri Lapeyre, Géographie de l'Espagne morisque, p. 175, Paris, 1927.

(8) Lapeyre, op. cit., p. 213

هذا المؤلف ان دوك دولرم قد قام بهذه العملية بصورة عنيفة مع حزم واستمرار .

فى ملاحقة الموريسكيين ، هذا فضلا عن بقية الحكام الاسبانيين .
الملايسات الاجتماعية والنفسية التى حفت بعملية الطرد كانت
تحمل الموريسكيون كل مشاق وارهصات السفر ومساومات
الجشعين، خاصة مع أولئك الذين التجاؤا الى جنوب فرنسا (9)، وهذا
تعكس جانبا آخر من مأساة الموريسكيين بعد مغادرتهم الاراضى الاسبانية

ان الدولة العثمانية كانت على علم بقضية الموريسكيين عن طريق
من المراسلات التى كانت ترد اليها سرا منهم ، وكذلك بفضل عدد آخر
الوسطاء النشطين امثال جارونيمو انرقاز (Jeronimo Enriguez) (10) .
الموريسكيون هم الآخرون على علم لكل ما يجرى بالدولة العثمانية
تحرك الاسطول العثمانى فى عرض البحر الابيض المتوسط ، الا وقوى
فى النجدة والمساعدة وبرر ذلك تحركهم السرى (II) بل ان الموريسكيين
الذين امكن لهم النجاة والهجرة خارج اسبانيا، كانوا يعتقدون ان ذلك قد
بفضل التدخل العثمانى (12) .

والسؤال الذى يفرض نفسه الان ما اذا كان السلطان العثمانى أحد
الاول قد قام بمبادرة ما لمساعدة الموريسكيين وانقاذهم من مصيبة التشريد
الجماعى ؟

ان تدخلا عسكريا عثمانيا فى غرب البحر الابيض المتوسط خلال العقد
الاول والثانى من القرن السابع عشر ، والدولة العثمانية بدأت فى الانحلال
كما بينا سابقا ، هو أمر يكاد يكون مستحيلا ، ولكن باستطاعة الباب العالى
ان يستغل صداقاته مع فرنسا وبريطانيا والبنديقية فضلا عن الولايات

(٩) راجع بخصوص ذلك :

Louis Cardaillac, «Morisques en Provence» et «Procès pour abus contre les morisques en Languedoc» in, Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie, pp. 89-113, Madrid - Tunis, 1974.

(10) H. Lepeyre, op. cit., p. 187.

(11) Louis Cardaillac, La polémique antichrétienne des morisques ou l'opposition de deux communautés (1492-1640), t. 1, p. 136, thèse de doctorat ès-Lettres dactylographiée, Université de Montpellier III, mai, 1973.

(12) Ibid., pp. 235-236.

العثمانية بافريقيا والمغرب الأقصى ، ليطلب من حكومات هاته الدول مساعدة الموريسكيين على الهجرة وتقديم المساعدة لهم وتسهيل مهمتهم والتدخل لدى الحكومة الاسبانية للتخفيف من القوانين الجائرة والمسلطة على الطوائف الاسلامية هناك .

ونحن نعلم أن السلطان أحمد الاول كان ورعا متدينا ومتعلقا بالاسلام ومحبا لأهل الحرمين (13) ولا شك أن الاخبار المفجعة لتشريد المسلمين قد جعلته أكثر اهتماما لمصيرهم والعمل على انقاذهم وافراد حتى خاص بهم يقالا (Galata) باستانبول وتخصيص أكبر جامع للمهاجرين الاندلسيين (14) .

وقد سعت الدولة العثمانية لتمتين علاقاتها مع المغرب الأقصى الذي اعتبر البلد الاسلامي المتصل مباشرة باسبانيا والاندلسيين ، وقد ارسل سلطان أحمد الاول الاميرال خليل باشا في مهمة الى المغرب الأقصى التي عليها بتاريخ 2 سبتمبر 1613 ، الظاهر منها ، كما يقرره المؤرخون ، هو ستين العلاقات بين الدولتين وتبادل السفراء (15) ، غير أن المتتبع والمتأمل في سياسة الباب العالي ، في هذه الفترة بالذات ، لا ينفى أن تكون مهمة خليل باشا لها علاقة مباشرة بقضية الموريسكيين ، هاته القضية التي اهتم بها جميع حكام المسلمين مشرقا ومغربا ، ولعل زيارة خليل باشا الاميرال عثمانى لطرابلس الغرب بعد زيارة المغرب الأقصى بخمس شهور ، لها ساس أيضا بهذا الموضوع الذي شغل الرأي العام الاسلامي آنذاك .

محمد بن محمد الاندلسي الوزير السراح ، الخلل السندسية في الاخبار التونسية ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيله ، الجزء الثاني ، القسم الاول ، ص 106 - تونس 1973
راجع أيضا :

Mantan, op., cit.

(14) C. Baysun, op. cit.

(15) Chantal de La Véronne, «Relations entre le Maroc et la Turquie la seconde moitié du XVIe siècle et le début du XVIIe siècle» in, *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, numéros 15-16, Aix en Provence, 2e semestre 1973, p. 398.

ولكن الذى يستعرعى انتباهنا اكثر هو المساعى الحثيثة التى قام بها السلطان العثمانى أحمد الاول لدى بريطانيا وفرنسا والبندقية ، لمساعدة المورييسكيين وانقاذهم وتسهيل تحولهم الى اراضى الدولة العثمانية ، وانطلاقا من هذا كلف السلطان الحاج ابراهيم اغا ، أحد خواص الخدمة السلطانية (I6) بالسفر الى لندن ومقابلة ملكها جاك الاول Jacques Ier وطلب مساعدته فى احتضان المورييسكيين الذين غادروا اسبانيا وتسهيل نقلتهم الى اراضى الدولة العثمانية (I7) ، الا أن بريطانيا التى عقدت معاهدة سلم مع اسبانيا ابتداء من سنة 1604 ، لم تستجب لطلب السلطان العثمانى ، ولم تحقق هذه انسفارة أية نتيجة تذكر .

أما مع فرنسا ، حيث كانت علاقات الدولة العثمانية ودية ، فقد أرسل السلطان أحمد الاول الى الملكة مارى دى ميدسييس (Marie de Médicis) الوصية على ابنها لويس الثالث عشر ، رسالة يطلب منها أن تساعد المورييسكيين الذين نزلوا بجنوب فرنسا وتوفير عدد من السفن ليتم نقلهم الى اراضى الدولة العثمانية ، وقد استجابت الملكة لنداء السلطان وأمرت باخراج المسلمين واركابهم سفنا فرنسية من سواحلها الى حيث يرغبون من البلاد الاسلامية (I8) .

ماذا كان مسعى الدولة العثمانية مع دوج البندقية حول قضية المورييسكيين ؟ ان رسالة السلطان أحمد الاول الى دوج البندقية التى بين

(16) شمس الدين سامى ، قاموس الاعلام ، ج 1 - ص 532 - استنبول - 1888 - توفي الحاج ابراهيم اغا سنة 1612 ومعنى هذا ان هاته السفارة تمت بعد 1603 وهى سنة اعتلاء ملك بريطانيا العرش .

(17) R. N. Kurat, İngiliz-türk munâsebetlerinin başlangıcı ve gelişmesi, Ankara, 1953.

مذكور فى :

G. Baysun, op. cit.

(18) عبد الله عنان ، نفس المصدر ، ص 112 . يذكر نفس المؤرخ ان هاته السفارة التى ارسلت الى فرنسا كانت نتيجة تدخل احد زعماء المورييسكيين الاندلسيين محمد أبو العباس الحنفى الذى وصل الى مدينة بلقرن وتقابل مع مراد باشا وزير السلطان الذى نقل اليه الظروف الصعبة التى تمت فيها عملية الطرد الجماعية ، وخاصة بجنوب فرنسا - ولم يذكر المؤرخ مصدره فى ذلك

أيدينا والتي تم العثور عليها بأرشيف الدولة بالبندقية لدليل قاطع على التدخل السياسى للدولة العثمانية لدى حليقاتها بأوروبا للعمل على مساعدة الموريسكيين .

والذى نستنتجه من هذه الوثيقة ان موريسكيين اثنين هما على وسليمان قد رفعا الى الدولة العثمانية تقريرا عن وضعية اخوانهم بالاندلس ، وكيف انهم يرغبون الالتحاق بالدولة العثمانية عن طريق البر لخشيتهم من البحر الذى أصبح غير آمن بالنسبة اليهم ، وهم يطلبون من الباب العالى التدخل لدى دوج البندقية للسماح لهم باجتياز الاراضى التابعة اليه دون أن يتعرض لهم ولأموالهم وأشخاصهم .

وهذا ما يؤكد تلقائيا ان الموريسكيين الذين كانوا يخشون البحر ، يفضلون الطريق البرى عن طريق البندقية للتحويل الى الولايات العثمانية القريبة (19) .

كذلك ناشد السلطان دوج البندقية تقديم كل اعانة لهؤلاء الموريسكيين كما طلب اليه ان لا «يتدخل فى امورهم او يتعرض لهم ولأرزاقهم وأموالهم ودوابهم خلافا للعهد والامان بيننا ، وهذا أثناء مرورهم بالمنازل والمراحل والمعابر ليصلوها آمنين سالمين» (20) وقد ربط السلطان احمد الاول حسن استعداد دوج البندقية لتقديم المساعدة لهؤلاء الموريسكيين ، كسبب لتحكيم بنیان «المصالحة وتمديد المعاهدة بينهما» وهذه نقطة جوهرية تعكس مدى الاهتمام البالغ الذى أظهرته الدولة العثمانية لقضية الموريسكيين مع حكومة البندقية .

(19) Fernand Braudel, La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, t. 2, 2e édition, p. 133, Paris, 1966.

يؤكد انه كانت تتم عن طريق البندقية هجرة الموريسكيين العجيبة .

(20) انظر نص الرسالة العربية عن اللغة التركية أسفله ، ص 14 .

النص التركي للرسالة

افتخار الامراء العظام العيسوية مختار الكبراء الفخام في الملة المسيحية
مصلح مصالح جماهير النصرانية صاحب اذيال الحشمة والوقار صاحب
دلائل المجد والافتخار ونديك دوزي ختمت عواقبه بالخير واصلاح الله تعالى
شانه توقيع رفيع همايون واصل اوليچاق معلوم اولاكه مقدما ولايت
اسبانية ده ساكن اولان مدجل طايغه سندن سليمان وعلى تام مسلمان
مدجلار درگاه معلمه عرض حال صونوب بوندن اقدم مسلمان مدجل طايغه
سندن بعضيلري قالقوب ممالك محروسه داخل اولوب لكن حالا مزبورلردن
بعضيلري ايده اولوب دريادن كلمكه خوف ايديوب واقتدارلري داخي
اولغه قره ايله ونديك طرفندن ممالك محروسه كلوب داخل اولق مرادلري
اولوب ونديك طرفندن ممالك محروسه كلمك اوزره اولان مسلمانره دخل
وتعرض اولنميوپ امين وسالم مرور وعبور ايتدرمكز رجا ايلديلر ايمدي
سز قديم الايامدن سدة ، سنية ، سعادت مدار وعته عليه ، كردون اقتدار
مزه خلوص قلب وحسن اعتقاد ايله عرض اخلاص واختصاص ايده كلمشي
دوالت عليه مزك خير خواهي اولوب بومقوله استانه ، سعادت اشيانه مزه
متعلق خدمتلرده معاونت ومظاهرت ايده كلكلر عز حضور فائض النورمزده
محقق وظاهر اولدوغى اجلدن طايغه مزبورلردن حاليا سزك ولا يتكز ده اولان
مسلمانلره اجازت ويريلوب قره طرفندن آمين وسالم بروجانبه ارسال
وايصال ايتمكنز بابنده نامه ، همايون سعادت مقر نمر يازيلوب ارسال
او لنمشدر كر كدركه :

وصول بوالدقده قديم الايامدن استانه ، سعادت اشيان ودودمان مخلد
الاركانمزه اولان خلوص محبت وداد وصفای عقيدت اعتقادكوز موجبجه
ذكر اولنان مسلمان مدجل طايغه سى اسبانية دن قالقوب ممالك محروسه
مزه كلوركن ونديك ولايته اوغرادقلىرنده منازل ومراحله ومعبر لرد
كندولرينه وطوارلرينه واسباب وارزاقلرينه عهد وامانه مخالف بر فردى
دخل وتعرض ايتدرميوپ امين وسالم ممالك محروسه مزه ايصال ايليه سز

شمديه دكين حسن اهتمامكز ظهوره كتورالوك اجلن بوققرانك دخى سهولت
ايله دار الامان اولان ممالك مجروسه مزه كلمه كرينه مساعده كوز ظهورى
وتحصيل رضاي اقتضامزه بادي واساس مصالحه ومعاهده نك استحكام
وامتدادى اولاجفنده اشتباه يوقدر اكا كوره تقيد كوستروب مرضى الحال
ومرفه البال روانه قلمرينه سعى واهتمام ايليه سز تحريرا فى اواسط
جمادى الاولى سنة ثلث (كذا) وعشرين والف

مقام قسطنطينية المحروسة (21)

تعريب الرسالة

افتخار الامراء العظام العيساوية مختار الكبراء الفخام فى الملة المسيحية،
مصلح مصالح جماهير النصرانية ، صاحب اذبال الحشمة والوقار ، صاحب
دلائل المجد والافتخار دوج (Doge) البندقية ختمت عواقبه بالخير
واصلح الله تعالى شأنه .

نحيطكم علما بهذا التوقيع الرفيع الهمايوى بان سليمان وعلى (22)
وهما من طائفة المدجلين (23) (المدجنين) القاطنين بالاندلس ، قد رفعوا الى
ابوابنا العالية عرضا اعلمنا فيه انه قد ورد سابقا الى الممالك المحروسة طائفة
من المدجلين المسلمين كانوا قد غادروا بلادهم وانه ما يزال منهم هناك اناس
يريدون القدوم علينا عن طريق البر ليدخلوا الممالك المحروسة وهم يرجون
ان لا يتعرض لهم ولا يتدخل فى شأنهم احد ، اذا ورد هؤلاء المسلمون عن
طريق البندقية الى الممالك المحروسة ، فلتسمح بمرورهم وعبورهم بالامن
والسلامة .

(23) ارشيف الدولة الايطالية بالبندقية .

Archivio Di Stato Di Venezia, Buste 4 17/3
2

انظر الشكل رقم 1 ، ص 13 .

(22) كم سيكون مجديا اجراء تحريرات فى دور الوثائق العثمانية التى ولا شك ستساعدنا
على العثور على التقارير التى رفعها الموريسكيون الى رجال الدولة العثمانية .

(23) درج المختصون على اطلاق لفظة المدجنين لا المدجلين كما جاء فى النص التركى للرسالة.

نظرا الى انكم ممن يريد الخير لدولتنا العلية وما زلتم تظهرون الاخلاص
والولاء من قديم الايام الى سدة سعادتنا العلية ، علو الافلاك ، عن غير
خالصة وطوية حسنة فانه واضح وجلى لدى حضرتنا العزيزة الفائضة الانوار
انكم كنتم وما زلتم تقومون بامثال هذه الخدمات وتقديم المعونة لسدة
سعادتنا السنية ، ونظرا لكل هذا فقد حررنا وارسلنا اليكم هذا الكتاب
الميمون الهمايوني لتجيزوا من هو الان ببلادكم من طائفة المسلمين ان يعبروا
عن طريق البر الى ممالكنا امنين سالمين .

وبناء على خلوص محبتكم وودادكم وصفاء عقيدتكم لهذه الابواب
السعيدة المشيدة الاركان من سابق الايام والازمان ، اذا ما ورد هذا الكتاب
اليكم ، ان توصلوا الى ممالكنا المحروسة كل من يريد القدوم عليها من طائفة
المدجنين المسلمين الذين خرجوا من اسبانيا وحلوا بولاية البندقية ، فلا
تسمحوا لاحد ان يتدخل في امورهم او يتعرض لهم ولارزاقهم واموالهم
ودوابهم خلافا للعهد والامان (بيننا) وهذا اثناء مرورهم بالمنازل والمراح
والمعابر ليصلوها امنين سالمين وقد سبق واتضح لنا حتى الان حرص
اهتمامكم وتيقنوا ان مساعدتكم لهؤلاء المساكين بدخولهم بلادنا التي هي
دار الامان وسيلة لتحصيل رضانا الميمون وسبب لتحكيم بنيان المصالحة
وتمديد المعاهدة ، فاهتموا واسعوا ، بناء على هذا ان يمروا ويعبروا راضيين
عن حالهم ، مرفهي البال .

تحرير في أواسط شهر جمادى الاول سنة 1023 (24)

بمقام قسطنطينية المحروسة

نرجو من الله القبول ومنكم الدعاء

هيثم العبيدي